سِمات
S e m a t

الإبستمولوجيا وخصوصية العلوم الإنسانية: عناصـر أولـية للتفكير

العياشي عنصر

أستاذ وباحث في علم الاجتماع – كندا

lanser0252@gmail.com

Received: 18 Mar. 2014,
Revised: 17 April 2013, Accepted: 23 May 2014
Published online: 1 Sept. 2014

Semat
ISSN 2210-173H
Semat, 2, No. 3, (Sept. 2014)

الإبستمولوجيا وخصوصية العلوم الإنسانية: عناصر أولية للتفكير

العياشي عنصر
أستاذ وباحث في علم الاجتماع - كندا

الملخص

تتحرى هذه الورقة دلالة «الإبستمولوجيا» بما هو مفهوم، يلفه الغموض واللبس من جهة المعنى، والتعدد والتنوع من جهة الاستخدام. كما تهدف إلى اكتشاف مضامينه بما هو حقل متخصص من العلم، والتعرف على وظيفته وعلاقته ببقية المعارف المتخصصة. ذلك ما يضعنا في مواجهة استكشاف وتحليل العلاقة بين الذات العارفة الفردية والتحديد الاجتماعي للمعرفة، وإبراز بعض مظاهر الانحياز الذي يميز الإبستمولوجيا التقليدية. تطرح الورقة أيضا إشكاليةالعلاقة بين الابتسمولوجيا والعلوم الإنسانية، وتزعم أنها علاقة جدلية تقوم على التحديد المتبادل بين الإبستمولوجيا كحقل منتج لمعايير الموضوعية والصدق من جهة، والعلوم الإنسانية كحقول منتجة لمعارف متخصصة. وتؤكد على خصوصية العلوم الإنسانية التي ترى أنها ذات طبيعة مزدوجة؛كونهامتميزة عن العلوم الطبيعية التي شكلت نموذج التفكير الابستمولوجي من جهة، ولأنهاغريبة المنشأ، تحمل انشغالات مجتمعات ذات واقع مختلف، وسمات مراحل تاريخية مغايرة لحاضرنا. كما تستكشف الورقة بعض العقبات التي تحول دون تطوير التفكير العلمي في المجتمعات العربية، لتخلص إلى طرح إمكانية تأصيل الإبستمولوجيا والعلوم الإنسانية في هذه المجتمعات.

الكلمات المفتاحية: الإبستمولوجيا، العلوم الإنسانية، التفكير العلمي، الخصوصية،العقبات، تأصيل المعرفة العلمية.

Epistemology and the Particularity of Humanities:
Preliminary Elements for Reflection

Layachi Anser
5229 Dundas St West, Toronto, ON. M9B 6L9 Canada

Abstract

This paper elucidates the meaning of "epistemology" as a concept characterised by confusion, multiplicity and diversity of usage. It also reveals its specific character as a field of scientific knowledge, its mission and relationships to other specialized fields of knowledge. The notions of the knowing subject and the social determination of knowledge are discussed, revealing bias in traditional epistemology. The implications for Humanities of epistemology as producer of criteria of validity and objectivity are discussed, revealing the mutual determination of both fields. Humanities as they stand have a particular character. On the one hand, they are distinct from the natural sciences that served as a model for epistemology. On the other; they originated in societies distinct from our realities, and deal with issues farther apart from our concerns. Finally, the paper identifies obstacles hindering the development of scientific thinking in Arab societies and suggests alternative ways to align Epistemology and Humanities to their particular needs.

Keywords: Epistemology, humanities, scientific thinking, particularism, obstacles, rooting scientific knowledge.

الابستمولوجيا وخصوصية العلوم الانسانية: عناصـــر أولـــية للتفكير

العياشي عنصر

أستاذ وباحث في علم الاجتماع – كندا

مقدمـــة:

سنحاول في بداية هذه الورقة تحديد معنى «الابستمولوجيا» بما هو مفهوم يشير إلى حقل متخصص من المعرفة الإنسانية، ثم نوجه اهتمامنا بعد ذلك إلى سيرورة تشكل هذا الفرع باعتباره حقلا معرفيا مستقلا عن باقي المعارف المتخصصة. ونركز خلال هذا الجزء على مناقشة العلاقة بين الذات العارفة الفردية والتحديد الاجتماعي للمعرفة، وصولا إلى كشف بعض مظاهر الانحياز الذي يميز موقف الإبستمولوجيا التقليدية.

أما الجزء الثاني فنخصصه لمعالجة العلاقة بين الابتسمولوجيا والعلوم الإنسانية باعتبارها علاقة جدلية تستدعي بالضرورة الاهتمام بإبراز خصوصية هذه العلوم. هذه الخصوصية التي نعتبرها ذات طابع مزدوج؛ بما هي متميزة عن العلوم الطبيعية التي شكلت نموذجا للتفكير الابستمولوجي، وبما هي غريبة المنشأ عندما يتعلق الأمر بدراسة مجتمعاتنا التي رغم تطورها ضمن إطار سيرورة تاريخية كونية، فإنها مع ذلك تتميز ببنى اجتماعية وثقافية تحدد هويتها ومكانتها.

١- نحو تحديد المفهوم:

الابستمولوجيا كلمة إغريقية مركبة من "ابتسمي "Epistémé وتعني معرفة، و"لوغو"Logos التي تعني العقل، وبالتالي فاللفظ يعني في مجمله "المعرفةالعاقلة، أو المعرفة العلمية". وإذا تصفحنا المعاجم والقواميس سنجد عدة تعاريف معجمية تساعدنا على إبراز وتوضيح معنى اللفظ من حيث هو مفهوم. لهذا الغرض سوف نورد عدة تعاريف محاولين من خلال مناقشتها الوقوف على نقاط التقاطع والتباين في المعنى المعطى للمفهوم.

التعريف الأول:

"الابستمولوجيا هي الدراسة النقدية للعلوم الدقيقة والإنسانية، وكذلك تكوين المعرفة العلمية وظروفها"[١]. كما يبدو، يركز هذا التعريف على استقلالية الإبستمولوجيا باعتبارها فرعا معرفيا له مجال خاص للدراسة هو سيرورة تكوين المعرفة العلمية، وذلك باعتماد طريقة محددة تتمثل في الدراسة النقدية.

التعريف الثاني:

"الابستمولوجيا فرع من الفلسفة يهتم بدراسة تاريخ ومناهج ومبادئ العلوم."[٢]

يربط هذا التعريف الإبستمولوجيا بإطار معرفي أوسع هو الفلسفة معتبرا إياها فرعا متخصصا من ذلك النشاط المعرفي الواسع. ويلاحظ عدم اختلاف هذا التعريف عن السابق من حيث تحديد موضوع الاهتمام غير أنه لا يشيرإلى طريقة الدراسة.

١- أنظر مادة ابستمولوجيا في؛ Dictionnairequillet, LibrairieAristadequillet, Paris. 1975

٢- أنظر مادة ابستمولوجيا في معجم؛ Petit Larousse, Librairie Larousse, Paris, 1988

التعريف الثالث:

«الإبستمولوجيا هي الدراسة التي تبحث في العلوم من حيث موضوعاتها ومبادئها وقوانينها وعلاقتها بعضها ببعض، وتكشف عن أصلها ومداها وتطلق أيضا على نظرية المعرفة.»[٣] يشير هذا التعريف إلى نفس العناصر الواردة في التعاريف السابقة، وإن بصياغة مغايرة. لكن ما يثير الانتباه وجود إضافة مهمة تتعلق بالمطابقة بين الإبستمولوجيا ونظرية المعرفة. لعل ذلك يؤشر إلى الغموض وعدم الدقة الذين يكتنفان استعمال المفهوم كما سنوضح لاحقا.

التعريف الرابع:

"...معنى الإبستمولوجيا إذن نظرية العلوم، أو فلسفة العلوم، أعني دراسة مبادئ العلوم وفرضياتها ونتائجها، دراسة انتقادية توصل إلى إبراز أصلها المنطقي وقيمتها الموضوعية."[٤] يتميز هذا التعريف، كما نرى، بشيء من التفصيل وهو تعريف مستوحى من تعريف «لالاند» الذي نورده فيما بعد. لعل أهم شيء يمكن ملاحظته هنا هو وصف الإبستمولوجيا باعتبارها نظرية العلوم،أو فلسفة العلوم.

التعريف الخامس:

"تعني هذه الكلمة (أي الابستمولوجيا) فلسفة العلوم ولكن بمعنى أدق، فهي ليست دراسة خاصة بمناهج العلوم، لأن هذه الدراسة موضوع للمنهجية، وهي جزء من المنطق، كما أنها ليست أيضا تركيبا أو توقعا حدسيا للقوانين العلمية (على الطريقة الوضعية)، إنها بصفة جوهرية الدراسة النقدية للمبادئ والفرضيات والنتائج العلمية، الدراسة الهادفة إلى بيان أصلها (المنطقي لاالنفسي) وقيمتها الموضوعية. وينبغي أن نميز الإبستمولوجيا عن نظرية المعرفة، بالرغم من أنها تمهيد لها، وعمل مساعد لاغنى عنه، من حيث أنها تدرس المعرفة بتفصيل وبكيفية بعدية في تنوع العلوم والموضوعات لافي وحدة الفكر"[٥].

تجدر الملاحظة أن هذا التعريف الذي يقدمه «لالاند» يعتبر أكثر دقة وتفصيلا بحيث يميز الإبستمولوجيا عن أنواع عديدة من المعارف مثل المنهجية والمنطق والفلسفة الوضعية، رغم أنه لا ينفي الصلة التي تربطها بجميع هذه الحقول المعرفية في نفس الوقت. ولعل أهم ملاحظة هي الفصل بينها وبين نظرية المعرفة، وفي المقابل ربطها بفلسفة العلوم من حيث هي صنف متخصص منها.

بالرغم من الاختلافات القائمة بين هذه التعاريف من حيث تحديد موقع الإبستمولوجيا وتعيين طبيعتها كفرع متخصص من المعرفة، وتبيان علاقتها بمختلف فروع المعرفة مثل الفلسفة ونظرية المعرفة، والمنطق... الخ، فإن مجمل التعاريف تلتقي حول بعض العناصر الأساسية مثل تلك التي تشكل موضوع الدراسة في الابستمولوجيا: مبادئ وفرضيات ونتائج العلوم. لكن يبقى التحديد الدقيق لمهمتها بمثابة نقطة الخلاف التي يدور حولها جدل المهتمين.

إذا كانت الإبستمولوجيا لاتهتم بدراسة مناهج العلوم كما يقول البعض،ولا بصياغة نظرية للمعرفة، كما يرى آخرون، فما هي مهمتها ياترى؟ يبدو أن النقطة التي يقع عليها الإجماع هي أن مهمتها تتمثل في الدراسة النقدية للمعرفة. وهذه كما يبدو صياغة غير دقيقة تفتح المجال واسعا أمام عدة تساؤلات منها: هل تشكل المعرفة بدون تمييز موضوعا للابستمولوجيا؟ أم أن نوعا محددا منها فقط يشكل موضوعا لدراستها؟ يمكننا القول أن هناك اتفاقا نسبيا على اعتبار المعرفة العلمية وحدها موضوع الدراسة النقدية من طرف الابستمولوجيا. لكن ما المقصود بالدراسة النقدية؟ هذا التعبير الذي يتردد في معظم التعاريف. إنها تعني توضيح الأسس والمبادئ وكشف المسلمات والفرضيات التي تقوم عليها أي

٣- يوسف خياط: معجم المصطلحات العلمية والفنية. دار لسان العرب، بيروت (د.ت)

٤- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت،١٩٧٨، ج١، ص٣٣

٥- تعريف لالاند وارد في، محمد وقيدي: ماهي الإبستمولوجيا ؟ دار الحداثة،بيروت، ١٩٨٣، ص٧-٨.

معرفة علمية متخصصة سواء تعلق الأمر بظواهر العالم الطبيعي، أو المجتمع البشري. كما يعني ذلك تقييم النتائج التي يتم التوصل إليها بالنظر إلى معايير معينة هدفها إبراز مدى صدقيةوموضوعية تلك المعارف المحققة.

يكفي لتوضيح الخلاف القائم حول تحديد مهام الإبستمولوجيا أن نشير إلى موقف اثنين من أشهرالابستمولوجيين المعاصرين أعني بذلك، غاستونباشلار G. Bachlar وجان بياجيه J. Piaget. إذ نجد باشلار يحدد مهمتين أساسيتين للابستمولوجيا التي يعتبرها فلسفة للعلوم. تتمثل المهمة الأولى في القيام بتحليل نفسي للمعرفة الموضوعية، حيث يكون موضوع التحليل هو لاشعور الباحث. والهدف هو التعرف على الحواجزالتي تحول دون تحقيق المعرفة الموضوعية،أعني ما يطلق عليه باشلار "العوائق الابستمولوجية". أما المهمة الثانية، فتتمثل في إبراز القيم الابستمولوجية، أي توضيح معنى الاكتشاف العلمي ودلالته من الناحيتين الثقافية والنفسية.

أما بياجيه فيحدد للابستمولوجيا مهمة مغايرة، مؤكدا ضرورة اهتمامها وتركيزها على البحث في نشوء المفاهيم والمقولات العلمية وتطورها. هذا ما يفسر الميل الواضح لدى بياجيه إلى ربط الإبستمولوجيا بعلم النفس التكويني، وهو ما يعلل أيضا صياغته لمفهوم الإبستمولوجيا النشوئية "Epistémologie Génétique" التي تعني نظرية المعرفة المُؤسَسة على تحليل نمو المعرفة عند الطفل، كما تهتم بنسق المفاهيم التي يستخدمها كل علم خلال مسيرة تطوره[٦].

تجدر الإشارة إلى أن تحديد معنى كلمة ابستمولوجيا من حيث هي مفهوم يشير إلى حقل معرفي معين ليس موضوع خلاف بين الباحثين فحسب، بل بين اللغات أيضا. إذ بينما يُستعمل لفظ الإبستمولوجيا في اللغة الإنكليزية كمرادف «لنظرية المعرفة»، نجدها تبتعد عن ذلك في اللغة الفرنسية حيث يستعملها معظم المفكرين بمعنى «فلسفة العلوم».

في الأخير، يمكننا القول مع الأستاذ المرزوقي أن الإبستمولوجيا قسمان؛ خاصة وعامة. أما الأولى، فتختص بدراسة العلوم كل واحد على انفراد، «وهي وليدة انكماش معرفي مزدوج: وجودي وابستمولوجي». في حين يكون موضوع الثانية دراسة المعرفة العلمية بصفة عامة، وهي لاتعدو أن تكون في النهاية سوى الفلسفة ذاتها. لأن هذه الأخيرة ليست سوى «وعي الذات العارفة بالمعرفة ككل، والسعي إلى رد كل ماعدا هذا الوعي إليه». أما من حيث العلاقة بينهما فإن الإبستمولوجيا الخاصة توصل إلى العامة. إذ بينما تقتصر الأولى على مهمة الوصف تقوم الثانية بمهمة التفسير، ومن ثم فهي تشكل نظرية عامة في المعرفة أي «نظرية معرفة فلسفية.»[٧].

ويحصر المرزوقي الإبستمولوجيا في أربعة مناظر رئيسة:

١- الإبستمولوجيا العامة التي أسسها أرسطو التي تعتبر العلم «نسقا من القضايا ذات أواصر منطقية» ويعتبر المنطق هو علم العلم.

٢- الإبستمولوجيا العامة التي أسسها أبن خلدون، وهي تعتبر العلم "نسقا من الممارسات التقنية ذات الأواصر الاجتماعية"، وتمثل التكنولوجيا علم العلم.

٣- الإبستمولوجيا الذاتية التي أسسها ديكارت، وطورها كانط وهي صورة باهته عن الأولى، إذ تقوم على تعويض النسق اللغوي بنسق متعال يتضمن ملكات العقل المتسامي ويشكل المنطق المتعالي علم العلم.

٤- الإبستمولوجيا العامة التي أسسها وطورها هيغل، وفيها يقع استبدال المجتمع بماهية خيالية هي الفكرة المطلقة التي تتجسد عبر

٦- حول موقف كل من باشلار وبياجيه، أنظر محمد وقيدي، مرجع سابق، ص ١٣.

٧-الاقتباسات السابقة مأخوذة عن أبي يعقوب المرزوقي؛ الإبستمولوجيا البديل، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٥، ص٧٦-٧٧.

التاريخ. وهي تشكل صورة باهتة عن الثانية وفيها يعتبر "التاريخ الأسطوري" علم العلم، وفلسفة التاريخ صورة العلم.[٨]

ما نستخلصه من هذا العرض البسيط لبعض التعاريف والآراء هو أن مفهوم الإبستمولوجيا يتميز بدرجة من الغموض ويلفه الالتباس بحيث لايشكل موضوع اتفاق لدى المهمتين رغم وجود نقاط التقاء أساسية. وترتبط الاختلافات بالمدارس والتيارات الفكرية السائدة حول موضوع المعرفة عموما، والعلم بما هو نشاط متخصص يعتمد قواعد وإجراءات محددة.

٢- تكوين الإبستمولوجيا كمعرفة مستقلة:

يعتبر ظهور الإبستمولوجيا كنوع معرفي قائم بذاته ومستقل عن باقي الفروع المعرفية المتخصصة إحدى النتائج الأساسية لتشظي التصور الأحادي للعالم الذي كان سائدا في القرون الوسطى في أوروبا.كما أنها ثمرة لاكتشاف التنوع الهائل في وجهات النظر نحو أنساق الوجود. وعلى حد تعبير "كارل مانهايم" عملت الإبستمولوجيا على إنهاء الشك باعتمادها على نقطة انطلاق لا تستندإلى تلقين وثوقي لنظرية الوجود، ولا إلى نظام كوني يستمد مصداقية من نوع متعال من المعرفة، لكن تعتمد على تحليل الذات العارفة.»[٩] ويحدد مانهايم الثنائية الأساسية التي تقوم عليها كل الأفكار والتأملات الابستمولوجية ممثلة في قطبين هما: الموضوع (أو الشيء)، والذات (أو الفاعل). لذلك تميزت الإبستمولوجيا بسيطرة اتجاهين رئيسين من التفكير. ينطلق الأول من عالم الأشياء الذي يمثل قاعدة لتفسير موقع الذات في النظام الكوني، وهو الذي تستمد من خلاله الذات كل قدراتها الإدراكية. أما الثاني، فينطلق من عالم الذات نفسها من حيث هي معطى آني لاريب في وجوده، ومنها تتم محاولة التوصل إلى المعرفة الموضوعية الصادقة.[١٠]

يشير مانهايم إلى تفكك وانهيار النظرة الأحادية نحو العالم بعد أن كانت مهيمنة حتى نهاية القرون الوسطى، حيث وجدت سندا قويا لها في تعاليم الكنيسة وأفكارها. وقدكرست تلك الأفكار نظاما كونيا تمنح من خلاله لكل المواضيع والأشياء«قيمة وجودية» معينة،مرتبةإياها ضمن سلم هرمي تحتل فيه تلك الأشياء مراتب محددة. وبذلك سيطر تفسير معين عن قيمة الفكر الإنساني يجد قاعدته وركيزته في عالم الأشياء. لكن مع انهيار هذه النظرة، في خضم التغيرات والتحولات العميقة التي شهدتها مجتمعات القرون الوسطى، ظهرت مواقف معارضة تماما لهذا التوجه حيث لم يبق هناك من بديل غير الانطلاق من الذات (أو الفاعل) من أجل تحديد طبيعة الفعل الإدراكي البشري وقيمته، والبحث عن إيجاد سند للوجود الموضوعي انطلاقا من الذات العارفة.

يمكن إرجاع هذا التقليد الابستمولوجي إلى ظهور التيار العقلي وتأسيسه في الفلسفتين الفرنسية والألمانية لدى كل من ديكارت، كانط، لايبنيتز، كما أن أثره واضح في التفكير الابستمولوجي الإنكليزي ذي التوجه المثالي- النفسي الذي يمثله فلاسفة مثل: هيوم، لوك وباركلي. وهكذا ظهرت مبادئ ابستمولوجية جديدة تحت وقع التغيرات الجوهرية التي عرفتها المجتمعات سواء في بنيانها المادي أو الثقافي. كانت النتيجة بروز تصورات ووجهات نظر جديدة أسهمت في اقتراح حل للإشكالية الابستمولوجية. إذ ساد الاعتقاد، كما يقول مانهايم، أنه «من خلال معرفة أصول التمثل الإدراكي يمكننا بلوغ فكرة معينة عن دور الذات ودلالتها بالنسبة لفعل المعرفة وكذلك مدى قيمة ومصداقية المعرفة الإنسانية عامة.»[١١] لذلك فإن تحديد طبيعة الذات العارفة في بعديها الفردي والاجتماعي أضحى يشكل مهمة جوهرية وحاسمة.

٨- نفس المرجع، ص ٧٨-٨٠

٩- أنظر بهذا الخصوص،
Karl Mannheim,Ideology and Utopia, London, R.K.P, 1979, p 11.

١٠- كارل ما نهايم، نفس المرجع، ص ١٢.

١١- نفس المرجع، ص، ١٣

١،٢ - الذات العارفة: الفرد والجماعة

تحتل أسطورة الفرد المنعزل والمكتفي ذاتيا موقعا مركزيا في الإبستمولوجيا التقليدية. كما تؤدي هذه الفكرة دورا أساسيا، وكأن الفرد المنعزل يمتلك منذ البداية القدرات المميزة للنوع البشري، بما في ذلك المعرفة الموضوعية الصادقة. تشتغل الأسطورة وكأن معارف الفرد تنبع من داخل ذاته فقط استنادا إلى تماهي هذه الذات مع العالم الخارجي.[١٢] يجد مثل هذا الموقف الإبستمولوجي جذوره في نظرية الفردانية المتطرفة التي انتشرت خاصة في عصر النهضة، ثم بعد ذلك في فترة ظهور الأيديولوجيا الليبراليةوتوسعها. وقد تميزت تلك الفترات بضعف التركيز على العلاقات القائمة بين الفرد والجماعة، والاهتمام المتزايد بأهمية دور الفرد على مستوى الإدراك الحسي للموجودات، وكذلك الاعتقاد بقوة في أولوية الطبيعة الأصيلة للفرد في بلورة الذات على المستوى التجريدي.

في مقابل هذا الموقف الذي يربط فعل المعرفة بجذور فردانية صرفة، ويحدد الذات العارفة باعتبارها ظاهرة فردانية أيضا، يؤكد كثير من المفكرين على اختلاف انتماءاتهم وفترات ظهورهم (من ابن خلدون إلى باشلار وبياجيه مرورا بماركس ومانهايم) الطبيعة الجمعية والطابع التعاوني للمعرفة باعتبارها ثمرة تجربة جماعية تميز حياة الجماعة،أين يطور الأعضاء قدراتهم وخبراتهم في إطار مشترك يعمل على بلورة النشاط الجمعي. لذلك نجد مانهايم مثلا يشير إلى أن الفشل في إبراز الطابع الاجتماعي للمعرفة يجد جذوره في إهمال الحلقة الاجتماعية الأساسية التي يتم من خلالها تنمية وتطوير كل الخبرات والقدرات الفرديةوعدم تحليلها بشكل واف وتتمثل هذه الحلقة المهملة في الجماعة.[١٣]

كما تنبغي الإشارة إلى أن الإبستمولوجيا التقليدية تميزت بتصورها لسيرورة الإدراك باعتبارها انبثاق وتبلور للمعرفة انطلاقا من التأمل النظري الصرف. وبذلك فإنهاتقوم برفع حالة خاصة واستثنائية إلى مستوى المبدأ العام. غير أن مثل هذا التصور لا يستندإلى أساس، إذ مادام فعل المعرفة يمثل في جوهره فعلا جمعيا، فإنه يستدعي وجود أسرة معرفية ذات جذور متأصلة في الخبرة الجمعية التي تتوفر شروط وجودها في الممارسة والذاكرة الجمعيتين.

٢،٢ - انحياز الابستمولوجياالتقليدية:

عرف مجال المعرفة العلمية تقسيما تقليديا بين نوعين من المعارف المتخصصة، يتمثل الأول في المعرفة المحققة في العلوم الطبيعية، والثاني في المعرفة التي تحققها العلوم الإنسانية. وقد احتدم النقاش حول مشروعية هذه التجزئة والأسس التي تستند إليها، ويعود الجدل إلى اختلاف التصورات الأنطولوجية الخاصة بكل من العالم الطبيعي من جهة، والمجتمع البشري من جهة ثانية. إذ ساد الاعتقاد في وجود تمايز جوهري بين طبيعة ظواهر ووقائع كل من هذين العالمين، وبالتالي ضرورة تباين المقاربات والمناهج المعتمدة في دراستهما.[١٤]

مادامت الطريقة المثلى التي تدعي التحقق من صدق المعرفة بالاعتماد على وجود عقل متجاوز للإنسان يصدر أحكاما لا تقبل الخطأ قد أثبتت فشلها، كما أن الفلسفات التي تبنت ادعاءات مطلقة بامتلاك الحقيقة عن طريق التأمل العقلي وحده، أو التجربة الذاتية وحدها، قد مُنيت بخيبة أمل وتحولت إلى أنساق وثوقية مغلقة. فإن ذلك أعطى مصداقية أقوى لتيار أثبت فعاليته في تطوير العلوم الطبيعية، إنه التيار الحسي المعتمد على المنهج التجريبي. هذا إلى جانب عوامل أخرى، جعل العلوم الطبيعية بمثابة النموذج المثالي الذي ينبغي على بقية المعارف الأخرى أن تطمح إلى بلوغه إن هي أرادت اكتساب صفة العلمية.

لعل من بين العوامل الحاسمة التي جعلت هذه

١٢- كارل ما نهايم، نفس المرجع، ص، ٢٥

١٣- نفس المرجع، ص ٢٨

١٤- قمنا بمعالجة هذه النقطة بتفصيل أكثر في عمل آخر، انظر:العياشي عنصر، علم الظواهر الاجتماعية، دار طلاس، دمشق، ١٩٩٠

العلوم، بخاصة تلك التي تقبل التكميم والقياس، تحظى بالأفضلية هو استقلاليتها النسبية عن الإطار المرجعي التاريخي والاجتماعي للباحث، بمعنى تميزها بمستوى عال من التجريد. وهذا ما يجعل من جهة أخرى المعارف المتخصصة المعتمدة على التحليل النوعي تبدو ذات قيمة دنيا مادامت لا ترقىإلى تبني نماذج التكميم والقياس المطورة في العلوم الطبيعية.

لكن ينبغي التأكيد أن التفوق الذي حققته العلوم الطبيعية لايجد جذوره في ظروف تاريخية ومجتمعية محددة فحسب، بل أيضا في اختلاف المعارف والرهانات التي تشكل موضوعا لكل مجموعة من هذه العلوم. ويمكننا أن نجمل التمايز القائم بين هاتين المجموعتين في نقطتين:

أولا: تتميز وقائع العالم الطبيعي بقدر كبير من الموضوعانية Objectification والاستقلالية عن الفكر خلافا للأحداث والممارسات المجتمعية التي تكون أكثر ارتباطا بالتصورات والمواقف التي يتبناها الناس، بل أنها ناتجة عنها ولو جزئيا.

ثانيا: اختلاف طبيعة الرهانات التي تشكل المعرفةوسيلة لحلها بطريقة أو بأخرى، وفي صالح قوة اجتماعية أو أخرى. ذلك أن السيطرة على العالم الطبيعي التي تكون هدف كل معرفة في العلوم الطبيعية رغم كونها تشكل رهانا أساسيا، إلا أنها مع ذلك لاتكتسي الطابع الملح والحاسم الذي يميز الرهانات في مجال العلوم الإنسانية أين تدور السيطرة على المجتمع والتحكم في مساره.[١٥]

بالرغم من أن السيطرة على العالم الطبيعي تبقى مهمة حيوية،ما يفسر التطور المستمر في مجال العلوم الطبيعية، فإن هناك تغييرا في ميزان القوة المميز للعلاقة بين هذه العلوم والعلوم الإنسانية منذ بداية القرن التاسع عشر. هذا التغيير دفع العلوم الإنسانية إلى مقدمة الاهتمام ومن ثم التطور السريع على المستويين النظري والمنهجي، لكن ذلك لم يحقق التخلص من سيادة نموذج العلوم الطبيعية إلا جزئيا، بل وقع تأكيدها في بعض الأحيان. فكانت النتيجة المنطقية هي سيطرة فكر ابستمولوجي يستمد مبادئه وقواعده في دراسة المعرفة وتقييمها من نموذج العلوم الطبيعية. حتى وإن عملت هذه السيطرة لفترة في صالح تطوير العلوم الإنسانية، فإنهالم تؤد في النهاية سوى إلى طريق مسدودة. لعل ذلك ما يفسر تعدد المحاولات التي برزت في هذا المجال من أجل تجاوز الأزمة الناتجة عن سيادة فكر ابستمولوجي منحاز بقوة نحو نموذج العلوم الطبيعية القائمة على مقاربة حسية.

هكذا عرفت العلوم الإنسانية تطور تيارات فكرية عديدة تستند إلى أسس مغايرة لتلك التي تميز التيارالحسي عموما والتجريبي بالخصوص، من ذلك علوم التأويل Hermeneutic Sciences منذ القرن التاسع عشر، وكذلك الظاهراتية أو "الفينومينولوجيا"والمنهج الإثني "الإثنوميثودولوجيا" حديثا. ومع أن هذه التيارات قدمت مساهمة معتبرة على المستوى النظري، إلا أنها لم تنجح في تأسيس فكر ابستمولوجي بديل في ميدان العلوم الإنسانية. باعتقادي أنه عدا محاولات محدودة تندرج ضمن الفلسفة الماركسية الحديثة (لويس ألتوسير مثلا)، والتحليل النفسي (أعمال جاك لاكون) J. Lacan، التي أثرت بقوة على إعادة صياغة النظرية الاجتماعية النقدية في شكلها الحديث كما تجسدها أعمال باحثين في فروع مختلفة من العلوم الإنسانية والاجتماعية مثل يورغنهابرماس J.Habermas وميشال فوكو M.Foucault[١٦]، والمقاربة التشكيلية الحديثة Constructionism التي ازدهرت في علوم التربية والإعلام والاجتماع كما تجسدها أعمال علماء

١٥- انظر بخصوص الفرق بين الرهانات والأهداف في العلوم الطبيعية والإنسانية:
Habermas, J. Knowledge and Human Interests, London, Heinnemann, 1972

16- L. Althusser et E. Balibar: Lire le capital, vol.1. eds. Maspero. (petite collection) 1978.
M.Foucault: L'archéologie du savoir, Paris, Gallimard, 1969.

الاجتماع أمثال بيار بورديو Bourdieu .P[17] وأنطوني غيدنز[18]. A. Giddens الذين حاولوا التخلص من هيمنة نموذج العلوم الطبيعية الذي يمثله بامتياز التيار الطبيعوي Naturalism.[19] تثير هذه المسألة إشكالية العلاقة بين الإبستمولوجيا والمعارف المتخصصة وبالذات العلوم الإنسانية باعتبارها أكثر ارتباطا بالممارسة والتصورات الجمعية، لذلك ينبغي التوقف قليلا لتفحص هذه العلاقة.

٣-الابستمولوجيا والعلوم الإنسانية:

تتخذ العلاقة بين الإبستمولوجيا والمعارف المتخصصة عموما شكلين أساسيين؛ أما الأول فيبدو في الادعاءات التأسيسية للابستمولوجيا باعتبارها لاغنى عنها بالنسبة للمعارف المتخصصة، حيث توفر لها المبادئ الضرورية لطبيعة المعارف التي تتضمنها،وكذلك التصورات التي تعتمدها في إجراءاتها المنهجية سعيا وراء الحقيقة والموضوعية.إضافةإلى ذلك توفير المعايير التي يتم على أساسها تقييم النتائج المحصلة في هذه المعارف. ويتجلى الشكل الثاني من هذه العلاقة في اعتماد الإبستمولوجيا على منجزات العلوم المتخصصة التي تتحقق في فترات تاريخية معينة، إذ منها تستمد تصوراتها عن طبيعة المعارف التي يمكن بلوغها، ومن ثم صياغة المبادئ العامة التي تؤسس عليها أحكامها ومعاييرها.

إن هذه العلاقة المزدوجة على رأي مانهايم تزيد في تعقيد المشكلة"لأن تلك المبادئ التي تشكل قاعدة لنقد المعارف وتقييمها هي ذاتها محددة تاريخيا واجتماعيا.[20] هذا التحديد هو ما يجعل تأثير الأحكام والمعايير المعتمدة وفعاليتها في إبراز صدق وموضوعية المعرفة تفقد ادعاءاتها بأنها كلية ومطلقة، ويجعلها على العكس من ذلك محدودة في الزمان، أي خاصة بفترة تاريخية محددة، وبنوعية المعارف المحققة خلالها.

كما تطرح العلاقة الخاصة بين الإبستمولوجيا والعلوم المتخصصة قضية جوهرية أخرى تتعلق بالتطور والتغير اللذين يتعرض لهما الفكر الإبستمولوجي ذاته. فالتطور والتغير يحدثان دون شك، لكن ليس كما يرى الفلاسفة الكلاسيكيون الذين يعتقدون أن الإبستمولوجيا تتطور بطريقة مستقلة وبعيدا عن التطورات و"الثورات" التي تشهدها المعارف المتخصصة. بل على العكس من ذلك، فإن تاريخ العلوم ومن ضمنها الإبستمولوجيا ذاتها يبين أن تطور هذه الأخيرة مرتبط بشكل وثيق بالتغيرات التي تعرفها العلوم المتخصصة. ذلك أن المعرفة الإنسانية عموما، والمعرفة العلمية بشكل خاص، تنمو وتتطور خلال سيرورة الممارسة المجتمعية التي تسعى لتقديم حلول معقولة وفعالة للمشكلات التي تفرزها الحياة الاجتماعية. ما يعني أن تطور المعرفة العلمية بهذه الطريقة لا يخضع دوما لإجراءات قبلية صارمة ومحددة لإنتاج المعرفة، بل أن مثل تلك الإجراءات الابستمولوجية والقواعد المنهجية ومعايير التقييم يتم اكتشافها وصياغتها في نفس الوقت الذي تتطور فيه المعرفة، وغالبا ما تأتي عملية بلورتها وصقلها بشكل نهائي في مرحلة لاحقة لإنتاج المعرفة في ميدان معين من الحياة الاجتماعية.

١,٣ - خصوصية العلوم الإنسانية:

بعد تقديم هذه الأفكار النظرية العامة عن طبيعة العلاقة بين الإبستمولوجيا والعلوم المتخصصة، يمكننا أن نورد بعض الملاحظات الأولية حول خصوصية العلوم الإنسانية في

17- Bourdieu, P. Le SensPratique. Editions Minuit. Paris. 1980

18- Giddens, A. The Constitution of Society, University of California Press, 1984.

١٩- أنظر بشأن هذه النقطة مقالنا،

Critique of Naturalist Sociology: a Constructivist Alternative» The International Journal of Interdisciplinary Social Sciences,Volume 2, Issue 2, Oct. 2007. pp187-198

20- Mannheim, Op. Cit. p 259.

العالم العربي عموما وفي الجزائر بصفة خاصة. وسوف نحاول أن نستخلص من هذا التشخيص السريع الآثار المترتبة عن تطبيق أسس ومعايير ابستمولوجية تدعي العالمية،تم تطويرها في فترة تاريخية محددة، وظروف اجتماعية معينة، على علوم إنسانية تتطور في ظروف محلية وخصوصية تضع قيودا عديدة، وتطرح أسئلة كثيرة حول مصداقية مقولاتها النظرية وأجهزتها المفهومية.

إن تأسيس العلوم الإنسانية في مجتمعاتنا لم يأت نتيجة لتفوق إطار معرفي يندرج ضمن سيرورة تراكم للمعارف خلال فترات تاريخية محددة، بقدر ما كان يعبر عن سيادة ظروف عامة داخلية وأخرى خارجية تميز تطور المجتمع. كما أن هذه العلوم تحمل بصمات المرحلة الحديثة من تطور هذه المجتمعات وما أفرزته من تيارات أيديولوجية وسياسية معينة تتنافس على الساحة من أجل الهيمنة على المؤسسات الاجتماعية. لذلك فإن العلوم الإنسانية لم تسهم في غالب الأحيان في إنتاج معرفة علمية، بقدر ما أنتجت خطابا أيديولوجيا تبريريا.كما أنها لم تنتج مثقفين نقديين،بقدر ما أنتجت شريحة من المثقفين العضويين الذين خدموا السلطة السياسية ومشاريعها. لقد كان الطلب على هذه العلوم في أغلب الحالات مستمدا من الدور الذي لعبته وما تزال في خدمة الرهانات والصراعات بين القوى الاجتماعية المتنافسة على الحكم، وفي سبيل نيل الشرعية أو معالجة مشكلات اجتماعية ذات صلة بتوجهات سياسية وعقائدية في مواجهة مشاريع أخرى منافسة ومعارضة.[٢١]

هذا فيما يتعلق بتأثير العوامل الداخلية، أما فيما يخص العوامل الخارجية فإن أهم ما يمكن الإشارة إليه هو التأثير الذي يمارسه المنشأ الغريب لهذه العلوم على مجتمعاتنا سواء تعلق الأمر بالأطر المعرفية، والمقاربات النظرية، أو الأجهزة المفهومية والقواعد المنهجية المعتمدة في البحث.يتضح ذلك جليا إذا علمنا أن فكرة الأنموذج "Paradigm" التي تحدث عنها توماسكون Thomas Khun في كتابه "بنية الثورات العلمية "The Structure of Scientific Revolution" تتضمن بالإضافة إلى العناصر المعرفية التي تختص بتحديد شروط إنتاج المعرفة ومدى صدقها، الظروف العامة المحيطة بعملية إنتاجها. وتمثل هذه الظروف سندا قويا لاغنى عنه لعملية البحث العلمي. لذلك فإن التغيرات التي عرفتها العلوم الإنسانية خلال مراحل تطورها لاتشير فقط إلى حدوث تغيرات نوعية في الأطر المعرفية، أو إذا استخدمنا تعبيرا مشهورا لدى ألتوسير "قطيعات ابستمولوجية". بل أنها تعبر كذلك عن تغيرات نوعية في المحيط، وما يميزه من شروط وظروف ذات تأثير مباشر وغير مباشر على البحث العلمي.[٢٢] (مثل قضايا توجيه البحث، وتمويله واستخدام نتائجه والتدخل المؤسسي والسياسي في تحديد مجالات البحث...).

لذلك فإن الإبستمولوجيا بما هي معرفة محددة اجتماعيا وتاريخيا تتضمن إلى جانب المبادئ العامة ذات الطابع الشمولي التي يمكن تطبيقها بصرف النظر عن الحدود الجغرافية والثقافية، نوعا آخر من المبادئ محدودة في الزمان والمكان، ومرتبطة بعناصر خصوصية يحددها المحيط الذي تنشأ فيه. ونجد من بين هذه المبادئ عناصر مثل أدوات القياس، وإجراءات التحقق من صدق المعرفة، وكذلك شروط صياغة وبلورة الجهاز المفهومي، والإجراءات التطبيقية التي تعين شروط عمل هذه العناصر. فالعلاقة بين الإبستمولوجيا والعلوم الإنسانية، كما أشرنا من قبل،ليست أحادية الجانب، أو ميكانيكية تفعل فعلها في اتجاه واحد؛(الابستمولوجيا← العلوم الإنسانية)، بل هي علاقة جدلية بكل معنى الكلمة. ذلك

٢١- أنظر مقالنا؛ «أزمة أم غياب علم الاجتماع في الجزائر»،المستقبل العربي، بيروت، عدد، ١٣٧جويلية،١٩٩٠، ص٤٨-٣٧، وكذلك مقال:
Remaoun, H «Sciences Sociales et Monde Arabe: élements pour uneproblématique» inURASC; Cahiers du laboratoire sciences sociales et Monde Arabe, N1, Oran, O.P.U. (S.D) pp. 48-57.

٢٢-انظر، مصطفى مرضي: «خطابات حول ممارسة البحث السوسيولوجي في العالم العربي» جامعة وهران، دفاتر مخبر العلوم الاجتماعية والعالم العربي، رقم١، ص١-١٠ (دون تاريخ)

أن الاهتمامات الابستمولوجية التي تنشأ بفعل المشكلات النظرية والعملية التي يطرحها تطور البحث في العلوم الإنسانية توفر في نفس الوقت إطارا موجها لتجاوز تلك المشكلات. وبفعل ذلك فإن المبادئ الابستمولوجية ذاتها تصبح موضوعا للمساءلة من خلال البحث عن صيغ جديدة لتأطير وتوجيه التفكير والبحث حول مشكلات مستجدة، وربما مغايرة تبرز في حقل العلوم الإنسانية.

من هذا المنطلق، فإن القضية الملحة اليوم فيما يخص توطين هذه العلوم لاتطرح فقط على مستوى تكييفها بحيث تصبح أطرها النظرية وأجهزتها المفهومية ومناهجها نابعة ومعبرة عن واقع مجتمعنا بكل ما يحمله من خصوصية، بل إضافة إلى ذلك، هناك مشكلتان أخريان:

تتعلق الأولى بإدراك وفهم المكانة الخاصة التي يحتلها المجتمع الذي نتحدث عنه، وتحليل بنيانه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي، وتحديد طبيعته باعتباره مجتمعا تابعا وخاضعا. أي أن الآليات التي تشكل بنيانه، وتتحكم في مسيرته تتحدد في جزء منها، على الأقل، خارج حدوده الجغرافية والثقافية. وبذلك فإن الحديث عن خصوصية هذا المجتمع تكتسي بالضرورة طابعا نسبيا.[٢٣]

أما المشكلة الثانية فتتعلق بالحرص على تطوير فكر ابستمولوجي يتماشى مع الخصوصية التي نحن بصدد التأكيد عليها حتى لاتحدث لدينا فجوة خطيرة العواقب على مستقبل العلوم الإنسانية عندنا إذا ما اجتهدنا في العمل على توطين هذه العلوم، في حين يتم إخضاعها لفكر ابستمولوجي مرتبط بعلوم تعبر عن اهتمامات ومشكلات مغايرة، وتتطور في ظل شروط مجتمعية وتاريخية مختلفة عن تلك التي تعرفها مجتمعاتنا حاليا. لذلك فإن الدعوة إلى إعادة النظر في العلوم الإنسانية وتكييفها مع خصوصيات الواقع الاجتماعي المحلي لابد أن ترتبط بدعوة أخرى إلى ضرورة بعث فكر ابستمولوجي أصيل يصوغ المبادئ والمعايير الخاصة بتحليل وتقييم المعارف المحققة في تلك العلوم بعد توطينها. ولابد أن تتضمن هذه الإبستمولوجيا البديل إلى جانب المبادئ العامة الكلية،مبادئ تعبر بوضوح وبقوة عن الجوانب الخصوصية المرتبطة بالمرحلة التاريخية، وبطبيعة ومستوى تطور التشكيلة الاجتماعية بمختلف مستوياتها السياسية والاقتصادية والثقافية. وهذه بالطبع دعوة إلى إخضاع مناهج البحث وتقنياته، وكذلك الأطر المفهومية لنظرة نقدية فاحصة من أجل تطويعها وتطويرها.

٢,٣ – عقبات أمام تطور الفكر العلمي:

لقد أشرنا منذ البداية إلى العلاقة المتجذرة القائمة بين أشكال التفكير الابستمولوجي والظروف التاريخية المميزة لأشكال موضوعية من الوجود والتطور الاجتماعي. وتتمثل هذه العلاقة في أن تلك الشروط الموضوعية لاتحدد نماذج المعلومات والمعطيات الحسية التي تؤسس على قاعدتها معارف وعلوم متخصصة فحسب، بل تتجاوز ذلك إلى التأثير في الفكر الابستمولوجي من حيث تعيين ما يعتبر "حقيقة" في فترة تاريخية محددة، وفي ظل أوضاع اجتماعية وثقافية معينة. ثم أن هذا التأثير يبلغ مداه من خلال تحديد المعايير والإجراءات المنهجية التي ينبغي على الباحث اعتمادها في سعيه لإثبات صدق وموضوعية المعرفة المحققة، أي مدى مطابقتها للصورة النموذجية السائدة عن "الحقيقة" في تلك الفترة والظروف.

لا يخفى أن النموذج المثالي للصدق وفكرة الحقيقة والإجراءات الكفيلة بتحقيقهما لايتشكل بمعزل عن الطرق الفعلية الملموسة التي تستخدم لتحصيل المعرفة في فترة ما بكل مميزاتها الاجتماعية والسياسية والثقافية، بل أن جميع هذه العناصر تتشكل في إطار تلك الظروف وتحمل آثارها بشكل أو بآخر. إن ما يهمنا من التأكيد مرة أخرى على طبيعة هذه العلاقة هو محاولة

٢٣- انظر بخصوص هذه النقطة : الواثق كمير وزينب البكري: "الدعوة إلى «علم اجتماع عربي» بين الأيديولوجية والعلمية". مجلة العلوم الاجتماعية، المجلد السابع، العدد الثاني، ١٩٨٩.

تقديم عرض أولي وبسيط نشير من خلاله إلى بعض العقبات التي نعتقد أنها تعترض سبيل الفكر العلمي وتطوره في مجال العلوم الإنسانية خصوصا، في الفضاء الثقافي والفكري العربي الذي تشكل الجزائر جزءً منه.

أولا: يبدو أن إحدى المشكلات التي تواجه تطور الفكر العلمي بصفة خاصة في العلوم الإنسانية، هي فشل الفلسفة، نظرا لخصوصية الثقافة العربية الإسلامية، في تحقيق الاستقلالية من تأثير الفكر الديني الذي يمارس ضغوطا قوية في توجيه التفكير وصياغته. نقصد بالفكر الديني التراث الفقهي المبني على الاجتهاد في فهم النص المقدس (القرآن) الذي يبقى موضوع قراءات متعددة ومتنوعة بحسب المذاهب والتيارات. من الواضح أيضا أن المحاولات المعاصرة الرامية إلى إعادة الاعتبار للعقل في مواجهة النقل، وتجديد الاهتمام بالبحث وبعث النقاش العلمي، لاتزال محدودة وضعيفة في مواجهة عقبات عديدة منها؛ ما يتعلق بالإرث الفكري القديم، ومنها ما يخص صعوبات توطين التصورات والمناهج الحديثة وتكييفها لملاءمة الإشكاليات المطروحة علينا؛ تلك التي تجسد بأشكال مختلفة خصوصية المرحلة التاريخية ومكانة مجتمعاتنا فيها[٢٤].

لعلنا لانبالغ إذا وصفنا الموقف السائد في الثقافة العربية الإسلامية عموما بالعداء تجاه الفكر العلمي، وبخاصة عندما يتعلق الأمر بالعلوم الإنسانية، سوف لن نبحث عن مثال بين المفكرين المعروفين بعدائهم الصريح للعقل، بل سنجده عند أحد الأعلام الذين عُرفوا بالتجديد وترجيح العقل والإسهام في تطوير أحدث العلوم، إنه العلامة ابن خلدون.

لنتأمل ما يقوله هذا المفكر العظيم في معرض نقده للفلسفة والبراهين والقواعد المنهجية للتفكير العقلي في الجانب الحسي من الوجود الذي يسميه الطبيعيات، إنه يقول: "إلا أنه ينبغي لنا الإعراض عن النظر فيها إذ هو من ترك المسلم لما لايعنيه. فإن مسائل الطبيعيات لاتهمنا في ديننا ولا معاشنا فوجب علينا تركها"[٢٥].

ومع أن بن خلدون يعترف بأهمية الفكر المنطقي والتأمل العقلي، فإنه ينبه إلى ضرورة الاحتراس من الفلسفة ويدعو من يريد الاطلاع عليها إلى وجوب التزود بالأحكام الشرعية وعلوم الدين إذ يقول: «وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه، ولا يكبن أحد عليها وهو خلو من علوم الملة فقل أن يسلم لذلك من معاطبها.»[٢٦]

بل أكثر من ذلك، نجد هذا المفكر المستنير يهاجم علماء المسلمين الذين تأثروا بالفلاسفة اليونانيين، ونقلوا عنهم واهتموا بمناقشة القضايا الفلسفية وألفوا فيها، إذ يقول بشأنهم:

"لما ترجمها (يقصد كتب الفلاسفة اليونانيين) الخلفاء من بني العباس من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي تصفحها كثير من أهل الملة **وأخذ من مذاهبهم من أضله الله من منتحلي العلوم** (التأكيد لي) وجادلوا عنها واختلفوا في مسائل من تفاريعها، وكان من أشهرهم أبو نصر الفارابي في المائة الرابعة لعهد سيف الدولة، وأبو علي بن سيناء في المائة الخامسة لعهد نظام الملك من بني بويه بأصبهان وغيرهما.»[٢٧]

لعل هذا الموقف من العلامة ابن خلدون الذي لايمكن تصنيفه بأي حال ضمن المفكرين المتعصبين والمتزمتين أو المعادين للعلم، خير دليل على مدى التأثير الذي مارسه ويمارسه حتى الآن الفكر الديني الذي من شأنه الحيلولة دون تطور

٢٤- ينبغي التنويه هنا بجهود مفكرين مثل محمد أركون ومحمد عابد الجابري وغيرهم الذين يحاولون تعزيز مجال التفكير العلمي النقدي في العلوم الإنسانية والاجتماعية بالرجوع إلى الموروث الثقافي العربي الإسلامي، وتوظيف الإبداعات المنهجية الحديثة التي تفتقت عنها قدرات الباحثين في هذه العلوم.

٢٥- ابن خلدون: المقدمة، المجلد الأول، الكتاب الأول، الفصل الحادي والثلاثون، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨١. ص ص ٩٩٦-٩٩٧ .

٢٦- نفس المرجع ، ص ١٠٠١ -١٠٠٢

٢٧- نفس المرجع، ص ٩٩٥.

الفكر العلمي. كما أن هذا التأثير يجسد بحق إحدى السمات الخصوصية للمجتمع العربي الإسلامي التي يبدو أنها لم تنل حقها من الاهتمام والفحص الدقيق بغية فهمها وتجاوزها. بل أكثر من ذلك، هناك مؤشرات تدل على أن حظوظ تجاوزها قد تقلصت اليوم أكثر من ذي قبل من خلال ردة قوية في التفكير تشجعه الحركات الدينية السلفية، بكل أطيافها، التي تزايد نطاق نشاطها وتأثيرها في العقود الأخيرة بشكل مثير للانتباه.[٢٨]

ثانيا: العقبة الثانية المهمة التي تحول دون تطوير الفكر العلمي تتمثل في هشاشة مكانة الجامعة باعتبارها المؤسسة المختصة في إنتاج المعرفة العلميةونشرها، وكذلك ضعف الدور الذي تقوم به في تعزيز البحث العلمي والتفكير النقدي، ومن ثم طرح القضايا الابستمولوجية التي تستدعيها عمليات التراكم المعرفي من حيث التواصل وتبادل الخبرات والتجارب داخل الأسرة العلمية محليا، وبينها وبين الأسر العلمية في المجتمعات الأخرى.

إن هذه الأزمة التي تطبع مكانة الجامعة كمؤسسة منتجة للمعرفة، والضعف الذي يميز دورها يعودان في جزء منهما على الأقل، إلى مشكلة الاستقلالية ويطرحان علاقة الجامعة بالدولة والمجتمع المدني على حد سواء. هذه العلاقة التي تميزت حتى الآن بهيمنة السلطة السياسية على الجامعة، واستخدامها لنيل الشرعية وتبرير نفوذ الفئات المسيطرة وتمرير مشاريعها. في نفس الوقت الذي تعاني فيه الجامعة من التجاهل والتهميش من قبل المجتمع المدني الذي لايرى فيها، في أحسن الأحوال، سوى آلية إضافية في خدمة النظام القائم.

ثالثا: ترتبط بالقضية السابقة عقبة أخرى أساسية تتمثل في إشكالية تكوين النخبة المثقفة التي يقع على عاتقها استيعاب وهضم الأفكار والعقائد المميزة لمراحل زمنية مختلفة من تطور الفكر العلمي والعلوم الإنسانية، والفرص الممكنة لتكييفها مع معطيات الواقع الاجتماعي وما يطرح فيه من قضايا. لكن هذه ليست بالمهمة السهلة نظرا لعوامل عدة ذاتية وموضوعية، منها ما يتعلق بمكانة المثقفين في المجتمع، ومنها ما يخص تعقيد المهمة ذاتها. فالباحثون والمفكرون يواجهون سيلا من الآراء والأفكار التي تعتبر ثمرة ظروف خارجية وغريبة عن مجتمعاتهم، وتنتمي إلى عصور ومراحل مختلفة وساهم في صياغتها مفكرون على مراحل متتالية، بينما المطلوب منهم اليوم مواجهتها دفعة واحدة. وأكثر من ذلك ينبغي استيعابها وتنقيتها وتوطينها بما يتلاءم والمشكلات المطروحة في مجتمعاتنا.[٢٩]

أما إذا نظرنا إلى البدائل الممكنة لمواجهة هذه العقبات فلا نجد سوى خيارين أمام النخبة المثقفة أو «الأنتليجانسيا» حسب ما يراه نذير معروف:

الخيار الأول، يتمثل في التملك الإرادي والنخبوي للعلوم الإنسانية الغربية عن طريق عملية التثاقف. ويبدو أنه الشكل السائد رغم فشله الواضح في توطين وتكييف هذه العلوم مع الواقع الاجتماعي بكل تعقيداته وخصوصياته.

أما الخيار الثاني، فيتمثل في إحداث قطيعة أنموذجية Rupture Paradigmatique سواء على مستوى دلالة أو مضمون هذه العلوم،أو عن طريق الاعتراف بوجود ذات عارفة خاصة بالفضاء الثقافي العربي. لكن يبدو أن هذا الخيار، رغم أهميته يبقى صعب التحقيق في الظروف الراهنة، بل في المستقبل المنظور بسبب عوامل عدة، ليس أقلها أهمية كون العلوم الإنسانية تبدو غير خاضعة

٢٨- ما يهمنا هنا هو أن نشاط هذه الحركات تجاوز الساحة السياسية إلى المجال الفكري، حيث نجد السوق مغرقة بالكتب التي تتطفل على الدين وما هي في الدين من شيء. إذ تعالج الأغلبية الساحقة منها مواضيع غيبية (الساعة، عذاب القبر ...الخ). بينما تعالج الأقلية مواضيع مهمة، لكن تغلب عليها السطحية وغياب المنهجية في التناول، بحيث تعتمد في معظم الحالات على استعمال النصوص المقدسة والفقهية دون قيد، رغم كون هذه ذاتها بحاجة للدراسة والتحليل والفهم من أجل تكييف الأحكام مع الواقع الحديث بكل تعقيداته ومستجداته.

٢٩- انظر: Remaoun, H. op. cit

لمطالب محددة نابعة من المجتمع.[٣٠]

خاتمـــــة:

حاولنا في هذه الورقة أن نعرض بعض عناصر التفكير حول ما يمكن تسميته بالمسألة الابستمولوجية في العلوم الإنسانية. ولعل أقصى ما نطمح إليه هو أن نكون قد وجهنا الاهتمام إلى بعض القضايا الجوهرية، والمسائل الملحة التي تستدعي مزيدا من التفكير والبحث المتفحص. نعتقد أن ما طرحناه لايمثل سوى جزءًا ضئيلا، ومساحة محدودة من الفضاء الشاسع والمبهم الذي ينبغي علينا اقتحامه وتسليط الضوء عليه.

إن تقدم المعرفة الإنسانية عموما، وتطور العلوم الإنسانية خصوصا، لايتم بمعزل عن تطوير التفكير العلمي بصورة عامة، والابستمولوجيا بصفة خاصة. لعلنا لانبالغ بقولنا أن مستقبل الأولى وفعاليتها كأداة لتحقيق رفاهية الإنسان ورقيه وتخليصه من كل أشكال الاستلاب يرتبط أوثق الارتباط بحظوظ تطوير الثانية.

إذا كانت المعرفة الإنسانية عموما ثمرة للشروط الاجتماعية والظروف التاريخية التي تنتج فيها، فإن ذلك يصدق أكثر على العلوم الإنسانية. هذا ما يجعلنا نؤكد بقوة أن كل محاولة لتطوير هذه العلوم وجعلها تعبر عن واقع وطموحات مجتمعاتنا يستدعي بالضرورة إعادة النظر في الأسس والمبادئ التي تستمد منها ادعاءاتها بالموضوعية والصدق والملاءمة. إنها دعوة صريحة لكل الباحثين من أجل المساهمة في بعث نقاش فكري وعلمي حول المسألة الابستمولوجية في العلوم الإنسانية في ضوء الخصوصية التي تطبع مجتمعاتنا باعتبارها نتاجا لسيرورة تاريخية وثقافية متميزة.

كما نعتقد بوجود علاقة وطيدة بين "تخلف وغربة" العلوم الإنسانية عندنا (نظريا ومنهجيا وتطبيقيا)، وهيمنة الطابع التقنوي المبتذل عليها من جهة، وغياب الاهتمام والانشغال بالقضايا الابستمولوجية من جهة ثانية. من المؤكدأن العقبات التي تحول دون بروز هذا الاهتمام وترسيخه كثيرة ومتنوعة (مؤسسية، ثقافية اجتماعية، سياسية...الخ)، غيرأن عملية التعرف عليها وفحصها وتحليلها تشكل لا ريب نقطة انطلاق لإعادة الاعتبار للتفكير العلمي وتشجيعه.

٣٠- أنظر بشأن هذه النقطة؛
Maarouf, N. «Allocution d›ouverture» in URASC Actes du séminaire, Tendances des sciences socialesdans le Monde Arabe. 2-3 Mars, 1988 Cahier N4 1991, p.13.

المراجع:

المراجع العربية:

ابن خلدون (عبد الرحمن)، المقدمة، المجلد الأول، الكتاب الأول، الفصل الحادي والثلاثون، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨١.

المرزوقي (أبو يعقوب)، الإبستمولوجيا البديل، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٥.

خياط (يوسف)، معجم المصطلحات العلمية والفنية، دار لسان العرب، بيروت (د.ت)

صليبا (جميل)، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٨، الجزء الأول.

عنصر (العياشي)، علم الظواهر الاجتماعية، دار طلاس للنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٠.

عنصر (العياشي)، "أزمة أم غياب علم الاجتماع في الجزائر"، مجلة المستقبل العربي، بيروت، عدد، ١٣٧، جويلية، ١٩٩٠، ص ٤٨-٣٧.

كمير (الواثق) والبكري (زينب)، "الدعوة إلى" علم اجتماع عربي" بين الأيديولوجية والعلمية". مجلة العلوم الاجتماعية، المجلد السابع، العدد الثاني، ١٩٨٩، ص ٩١-١١٠.

مرضي (مصطفى)، "خطابات حول ممارسة البحث السوسيولوجي في العالم العربي"، دفاتر مخبر العلوم الاجتماعية والعالم العربي، رقم١، جامعة وهران، (دون تاريخ).

وقيدي (محمد)، ماهي الابستمولوجيا؟ دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٣.

Bibliography:

Althusser, Louis. EtBalibar, Etienne, Lire le capital,vol.1. eds. Maspero. (petite collection), Paris, 1978.

Anser, Layachi: "Critique of Naturalist Sociology: a Constructivist Alternative", The International Journal of Interdisciplinary Social Sciences,Volume 2, Issue 2, Oct. 2007.pp187-198.

Aristade, Librairie: Dictionnairequillet, quillet, Paris, 1975.

Bourdieu, Pierre; Le SensPratique, Editions Minuit, Paris, 1980

Foucault, Foucault: Les Mots et les choses, Gallimard, Paris, 1966.

Foucault, Foucault: L'archéologie du savoir, Gallimard, Paris 1969.

Giddens, Anthony, The Constitution of Society; outline of the theory of structuration. University of California Press, California, 1984.

Habermas, Jürgen: Knowledge and Human Interests, Heinnemann, London, 1972.

Larousse, Librairie: Petit Larousse, Larousse, Paris, 1988

Maarouf, Nadir: "Allocution d'ouverture" in Actes du séminaire, Tendances des sciences socialesdans le Monde Arabe. 2-3 Mars, 1988, URASC Cahier N4, Oran, 1991

Mannheim, Karl: Ideology and Utopia, Routledge &.Kegan Paul, London, 1979.

Remaoun, Hassen: "Sciences Sociales et Monde Arabe: élements pour uneproblématique" in Cahiers du laboratoire sciences sociales et Monde Arabe, N1, URASC; Oran, O.P.U. (S.D).